ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 28 مارس 2018

التاريخ وما بعد الحداثة

هايدن وايتْ

ترجمة: محمد حبيدة

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018

التاريخ وما بعد الحداثة[1]

هايدن وايتْ

ترجمة: **محمد حبيدة**

1 H. White, «Postmodernisme et histoire», in Ch. Delacroix et autres collaborateurs, *Historiographies: Concepts et débats*, Paris, Gallimard, 2010, t. II, pp. 840-844

ما بعد الحداثة حركةٌ ثقافية، ظهرت في نهاية القرن العشرين في ميادين الهندسة والفنون الجميلة والأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية. وتنطلق هذه الحركة من فرضية مفادها أن مشروع التحديث الذي بدأ مع عصر الأنوار قد بلغ نهايتَه، وأن «حداثةً» جديدة ومختلفة تفرض ضرورتها من أجل عالم أصبح شاملا ومتعددَ الإثنيات ومتجاوِزا للقومية الضيقة. عالـمٌ تهدده «الإبادة البيئية» الناجمة عن التصنيع. وعلى مستوى التاريخ، ترى هذه الحركة أنه بالإمكان تصوره تصورا جديدا لفهم طبيعة الواقع الاجتماعي الناشئ الذي لم يتحدَّد بعدُ. وأخيرا، يستلزم هذا المشروع لكي يتحقق تجديدا من حيث المخيال البنّاء، وليس إصلاحا أخلاقيا أو تحليلا علميا. ولا يجد تيارُ ما بعد الحداثة سوى أشياء قليلة تستحق الاعتبار في التقليد الغربي الذي لم يعد مؤهلا لقيادة النظام العالمي الجديد. ويتضمن هذا التشكيك حتى الطريقة التي تنجز بها الدراسات التاريخية على يد المؤرخين الجامعيين في أوروبا، ذلك أن المابعد حداثيين يهتمون بالماضي، لكن بنظرة تقلص من أثر معظم مبادئ الإسطوغرافية المتداولة، بل ترفضها أحيانا جملة وتفصيلا.

في المقام الأول، لا يعتقد الما بعد حداثيون بوجود الماضي خارج قدرات المفكرين على تخيُّله. ويقتضي تصور الماضي على هذا النحو مقاربةً فنية أكثر منها علمية. وأخذا بعين الاعتبار بأن الماضي يبقى أصلا صعب الإدراك، فإنه ينبغي تشييده موضوعا للدراسة قبل تناوله موضوعا للتحليل. وثانيا، إذا كان المؤرخون الما بعد حداثيون لا ينكرون وقوع الأحداث في زمن مضى، فإنهم يميزون بين الأحداث القابلة للفهم والأحداث غير القابلة للفهم، ويركزون على ضرورة إعادة بناء هذه الأخيرة عوض الاكتفاء بالكشف عنها فقط. كما أنهم يعيدون النظر في فهم الأحداث كوقائع، فيميزون بين الوقائع كأحداث والوقائع كحقائق، باعتبارها توصيفات لسانية لنفس هذه الأحداث أو تأكيدات محمولة على توصيفات. فالوقائع ليست حقيقية أو غير حقيقية، لأن ما يهم هو واقعيتها، إن كانت قد حصلت بالفعل أم لا. ولذلك، ما يمكن اعتباره بالأحرى هو التوصيف الواقعي الذي ننظر إليه كحقيقة أو زيف. لكن عندما نتناول أحداث الماضي الكبرى وتلك التي تكتسي دلالة قوية بالنسبة إلى الأجيال الحية، لا يتعلق الأمر بمسألة الحقيقة بقدر ما يتعلق بمسألة الاحتمال. وهذا الاحتمال يتأسس على الحسّ الجماعي السّليم وتصورات ما هو ممكن. من هذه الزاوية، تميل الإسطوغرافية نحو إغراءات التمرين البلاغي. في واقع الأمر، يعمل الما بعد حداثيون ما في وسعهم لإرجاع الإسطوغرافيا إلى وضعها الما قبل حداثي لـمّا كان التاريخ فرعا من فروع البلاغة. ولذلك، لا ينظر المؤرخون الجامعيون بعين الرضى إلى هذا التيار، وهم الذين ادَّعوا علموية التاريخ في سياق التخلص من الكتابة البلاغية في بداية القرن التاسع عشر.

غير أن الما بعد حداثيين يفترضون أن كل حدث يمكن أن يخضع لتوصيفات مختلفة من حيث جوهره وطبيعته ودلالته، لكنها تبقى توصيفات مقبولة بالتساوي. ومادام أن المؤرخين لا يتوفرون على ما يوازي أنماط التجريب المعمول بها في علوم الطبيعة لقياس الفرضيات المتنافسة، فإن تمثل الأحداث التاريخية

وتوصيفها الأوَّلي قبل تحليلها وسردها، يصير قابلا للإدراك كموضوع للإبداع الأدبي أو البلاغي أكثر منه كشفا من الكشوف العلمية.

وتقوِّض هذه الاعتبارات التعارضات المفاهيمية للإسطوغرافية الكلاسيكية، أولا بين الأحداث «الواقعية» و»المتخيَّلة»، ثم بين الخطاب الحقيقي والخطاب الافتراضي، وأخيرا بين التاريخ والأدب. ويتقاسم الفكر ما بعد حداثي تقويض هذا التعارض القائم في خطابات العلوم الإنسانية، وذلك في مجالات متعددة: في الفلسفة (الأمريكي ريتشارد رورتي، والفرنسيون جون فرانسوا ليوتار وجاك ديريدا وميشال فوكو)، والكتابة الأدبية (الأمريكيون فيليب روثْ ودونْ دوليلو وتوماس بينشون، والنمساوي توماس بيرنهارد، والألماني وينفريد سيبالد، والجنوب إفريقي جون ماكسويل كوتزيه)، والسينما (الفرنسيان ألان رينيه وكلود لانزمان، والبريطانيان توني ريتشاردسون وريتشارد أتانْبوروغ، والأمريكي أوليفار ستون)، والهندسة المعمارية (الأمريكيون روبيرت فانتوريه وتشارلز مور ودانيال ليبسكايند)، والفنون التشكيلية (البلغاري كريستو، والأمريكية نيكول أيْسنمان، والألماني أنسيلْم كيفار، والفرنسي كريستيان بولتانسكيه)، والنظرية الأدبية (الكندية لِندة هوتشون، والأمريكي ستانلي فيش، والبلجيكي بول ديمان، والفرنسي رولان بارث)، وحتى النظرية التاريخية (الهولندي فرانك أنكيرسميت، والبريطاني كيث جينكينس، والفرنسي بول فينْ، والأمريكي هايدن وايت). لكن، وجب التدقيق بأن هذه الأفكار لا تشكِّل مذهبا متجانسا بقدر ما هي مجموعة من الممارسات المتنوعة القائمة على رفض أو تجاهل مبادئ الإسطوغرافية الحديثة.

ولم يأبه لهذا التحدي الذي أطلقته ما بعد الحداثة ضد الإسطوغرافية الاحترافية سوى عدد قليل من المؤرخين، منهم البريطانيان ريتشارد إيفانس وأرثير مارفيك، والإيطالي كارلو غانزبورغ، والأمريكي بيريز زاغوران، والفرنسي فرانسوا فوري. فعندما قبل هؤلاء الرد عليها، فإنهم رفضوا بكل بساطة تصوراتها التاريخية لأنها تتضمن تشكيكاً إبيستيمولوجيا ونسبيةً أخلاقية.

لكن هذا التشكيك الذي يهم التأويلات الخاصة بالماضي لا يمت بصلة للتشكيك المتعلق بما يمكن أن تقدمه أنماط معرفية أخرى؛ ذلك أن هذا النوع من النسبية الثقافية، الناجم عن رفض المعايير المعرفية ذات العلاقة بالأخلاق والقيم، لا تقضي برفض القواعد الطبيعية الكونية. ويفسَّر هذا التشكيك الما بعد حداثي بفشل الحداثة في إنتاج علوم اجتماعية وثقافية مشابهة من حيث قوتها التفسيرية والتنبؤية لعلوم الطبيعة. ولذلك، يستهدف هذا التشكيك ادعاءات اليقين العلمي الذي تحمله من دون أساس العلومُ الإنسانية والاجتماعية. كما أنه يتعارض مع جميع أصناف الدوغمائية ومع الاعتبارات الخاطئة التي تجعل ممّا هو متداول إجرائيةً علمية، كما هو الحال مثلا بالنسبة إلى «المنهج التاريخي» المزعوم. أما الاتهامات المرتبطة بالنسبيَّة، فإن الما بعد حداثيين يميلون إلى الاعتقاد بأن تراكمات الكتابة التاريخية نفسها هي إجرائية تسعى إلى التنسيب.

فوضع حدث ماضٍ في سياقه الأصلي هو الذي يؤسس لدلالته من حيث نسبية هذا السياق. كيف يمكن للباحث أن يكون مؤرخا من دون أن يتعامل مع أحداث الماضي بنسبية ثقافية في تحديد دلالتها؟ لكن ما أمر الاتجاه الما بعد حداثي القاضي باختزالِ التاريخ في الأدب، ومحوِ الفرق بين الواقع والخيال، واعتبارِ التاريخ نصاً أكثر منه تراكما لوقائع حقيقية؟

ثم ماذا تعني المقولات الما بعد حداثية، مثل القصة والتناص. أولا، تختلف هاتين المقولتين تماما عن مثيلتهما الحداثيتين أو ما قبل حداثيتين. عندما يعلن الما بعد حداثيون أن «العالم نصٌ»، فإنهم لا يميلون إلى التأكيد بأنه ينبغي «قراءة» العالم كما «كتبه» الله، ولا إلى فهمه كرُكام من الرموز القائمة على أساس ذات الإنسان المتعالية. فالمقاربتان معاً تفترضان جوهرا أو أصلا للعالم يقبل بفكرة دلالةٍ مسبقة للأشياء. على العكس من ذلك، يعتقد الما بعد حداثيون أن الظواهر التاريخية ليس لها أهمية جوهرية أكثر من الظواهر الطبيعية. ولذلك، يرى هذا التيار أن فهم العالم لا يتأتى إلا عبر تناصيّاته السابقة، وأن الدلالات التي من الممكن إدراكها من هذه التناصيّات هي رموزٌ لسانية تجعل العالم «قابلا للقراءة». لكن لا شيء ثابت في هذه الرموز التي تشكل موضوع تحولات ومراجعات وتداخلات متواصلة. هذا لأنه لا شيء طبيعيٌّ فيها أو محددٌ سلفا.

يبدو هذا الطرح وكأنه يختزل الكتابة عموما، بما فيها كتابة التاريخ، في الكتابة الأدبية. هذا ما يزعج المؤرخين المحترفين الذين يُجمِعون، مهما كانت خلافاتهم، بأنه لا سبيل إلى الجمع بين الواقع والخيال، لأن الوقائع تُكتشَف بينما القصص تُبتدَع، ولأن الكتابة التاريخية شيءٌ والقصة شيءٌ آخر. لا يهتم الما بعد حداثيون بالطريقة التقليدية لتأويل العلاقة بين التاريخ والقصة بقدر ما يركزون على فهم المدى الذي يمكن أن تبلغه الإسطوغرافية والكتابة الأدبية لكي تُفهمان كأشكال كتابية. فالفرق هنا يقع بين الكتابة الفنية (الأدبية أو الخيالية) من جهة، والكتابة المنفعية أو التواصلية من جهة ثانية. ويرتبط هذا الفرق باستخدام أو محو الإجراءات «الأدبية» داخل الخطاب. من هذه الزاوية تكتسي بعض الكتابات الواقعية مظهرا أدبيا، مثل «الثامن عشر من برومير للويس بونابَرت» لكارل ماركس، و»هل هذا هو الإنسان» لبريمو ليفي، و»مدارات حزينة» لكلود ليفي ستروس، و»خريف العصر الوسيط» ليوهان هويزينغا. ثم إن الكتابات النفعية ذات السمة الإيديولوجية بالخصوص، تبقى في معظمها خيالية. فأغلب الكتابات هي مزيج من الواقع والحكي مادامت الكتابة فعل خياليٌّ يترجِم باستمرار المقولات والمفاهيم إلى وجوه يستخدمها هذا الفعل الخيالي لإنتاج آثار واقعية، ويحوِّل داخل السرود التاريخية الشخوص والأشياء إلى أنماط قابل للفهم من خلال هالة الحكي. فالسرد التاريخي لا يمكنه ألاّ يضفي سمةً درامية على الوقائع التي طرأت فعلا في مكان واقعي. لكن هذا المكان الواقعي ينبغي أن يتحول بدوره إلى مشهد قبل أن يتعرف عليه القارئ كمكان جرت فيه هذه الوقائع.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018